

الناصر وإلحاح الهوية

معجب العدواني

إذا كانت الأعمال الروائية لغازي القصصي ورجاء عالم وعبد خال وتركي الحمد تمثل مرحلة التسعينات لدينا بكافة تشظياتها السردية، فإنه يمكن القول: إن إبراهيم الناصر الحميدان منفرداً يمثل مرحلة رواية الثمانينات في أدبنا.

بين سفينة الضياع المكتوبة قبل سبعة وثلاثين عاماً كما كتب في نهايتها (أهيت كتابة هذه الرواية عام 1383م المصادف عام 1963م أي قبل أكثر من ربع قرن ولكن لم تتم طباعتها وتوزيعها للأسباب التي شرحتها قبلاً... ص 162) وعمله الروائي المكتوب في الرياض 1993/5/1م.

لقد قال جبرا إبراهيم جبرا " إن علاقة الكاتب بالواقع اليومي لمجتمع وثيقة ومتعددة الأطراف دائماً. ومهما بدا أنه يعتزل بنفسه حين يتعامل مع الكلمات، فإنه ليس كياناً منفصلاً عن الكيانات التي تجعل لوجوده معناه. ولذا فإن علاقته بالواقع اليومي هي علاقة بضميره وضمير مجتمعه معاً، بضمير أمته وضمير الإنسانية كلها، في آن".

اعتزل فكتب إبراهيم الناصر تلك الأعمال التي تراوحت بين القصة القصيرة والرواية، والتي زادت على عشرة أعمال متنوعة، ولكنها تتفق في مجموعها في كونها تجسد قضايا المجتمع وتفصيله الصغيرة، تطرح أكثر من هم من المهوم التي تشغل إنسان هذه الأرض و على مستويات إبداعية مختلفة، تنحو إلى الرمز وهي ترتدي أهدى حلل الواقع، تتيمن بالبساطة في لغتها السردية وتتبع عن التكثيف الشعري، ترقن إلى الوضوح والمباشرة في بنيتها السطحية، وتبتعد عن تبني الغموض.

وهو بكل أدواته تلك استطاع أن يوغل في المناطق الأكثر ظلمة، وأن يضيء عليها إشعاعه الكتابي الخاص.

من جانب آخر، يمثل إبراهيم الناصر — في رأبي — مرحلة الصراع غير المنظور التي نشبت بين الروائي والشاعر، وهو الصراع الذي جنى منه الروائي مساحات واسعة في ثقافة مجتمعا، تلك المساحات التي كانت قرونا طويلة للسان القبيلة وحكيمها (الشاعر)، وهي المساحات التي بدأت تتقلص بدخول تلك الصحراء منعطفاً مهماً في ثقافتها، إذ آمنت بشرعية التعدد عبر الرواية، ووجدت ضالتها في قلم فيه بقايا سارد يجوب الفيافي والبلدان ملتحقاً بالبساطة والشفاهية، ليتحول إلى راصد يكثر من التأمل في علاقة الذات والعالم في أجواء تزداد تعقيداتها ومن ثم تزداد إمكانية ابتعادها عن الخطاب الأحادي المفرط.

شكلت أعمال إبراهيم الناصر تياراً يشي بهاجس المحلية ويتبناها، فالبيئات المحلية في أعماله تمثل التنوع الأقليمي في سياق الرواية، لكن هاجسها القومي كان أقل تواصلًا مع هاجسها المحلي، وقد كان تنوع البيئات دالاً على الثراء في التواصل مع أقاليم متعددة في المملكة.

غير أن ازدياد التحولات عبر أجواء غير عربية في عمل روائي كـ (غيوم الخريف) توحى بتحول في هوية السرد لدى الناصر، إلا أن هذا العمل وإن دارت أحداثه خارج أجواء (الرياض) غالباً فإنه يوحى بضرورة العودة من شخصيات (محسن) و صديقه (سلمان) إلى الأجواء المؤسس لها في مطلع العمل الروائي أو في أثنائه، وهي أجواء حارة (العود) الشهيرة بالرياض، أو الشوق إلى العودة لأجواء شارع البطحاء.

إن حضور (موزي) الزوجة، والابنة (نورة) يتوازي مع حضور الأمكنة السابقة في الأعمال السابقة ومن ثم يمكننا القول: إن الرواية مع اختيارها أجواء خارجية وبعيدة جداً عن مسقط رأس محسن، وصديقه سلمان. فهي رواية تدور في أجواء داخلية باسترجاعها لأوضاع الحياة المحلية، ولذا كان لنا أن نصنف أعمال إبراهيم الناصر في إطار الأعمال الروائية ذات الهوية المحلية المتنوعة.

تحولات الشخصية لدى الناصر ما هي إلا نتيجة حتمية لذلك الصراع الذي أوجدته الثقافة بين الروائي والشاعر. في روايته (رعشة الظل) تصبح شخصية العمل المحورية (فالخ) مرتعاً لجانب صنع الهوية وإنتاجها بوصفه (ابن القرية) المتحول بحكم الثقافة والعمل إلى (ابن المدينة) ولعل السارد في هذا العمل — وهو ذو نزعة مغرقة في الواقعية — قد كان متمرداً على تلك الشخصية في مراحلها الأولى، ويتجلى ذلك باستخدامه تقنية السرد بضمير الغائب، لكنه لم يلبث أن تضامن مع هذه الشخصية مع دولها مرحلة الاستلاب والتشيؤ، ولعل أبرز تلك المراحل التحول الاسمي من فالخ إلى رمح. ودخول الشخصية إلى تلك المرحلة يفضح انتهاكات المدينة الحديثة لإنسان القرية الساذج. السارد ذو النزعة الواقعية كثيراً ما يكون مراوحاً في سرده بين ضميري المتكلم والغائب. مستخدماً ضمير الغائب لي طرح تخليه عن الشخصية، فتنفسي صيغة التضامن معها، وسرعان ما يتحول السرد بضمير المتكلم حينما يحس السارد بتشبيؤ الشخصية واستلابها، ولعل في رواية رعشة الظل خير دليل على ذلك، فابتداء من استلاب الاسم لدى (فالخ) بطل رواية (رعشة الظل) والبدء في تحوله إلى (الرمح) يتضامن ذلك السارد معه فيتحول السرد إلى ضمير المتكلم. تلك التحولات تنفق في كونها راوحت بين كاتب وسارد وشخصية وفضاء روائي.